تجديد الخطاب الديني في عصر العولمة

أ. الحاج ميمون نسيمة

إنّ تجديد الخطاب الديني وإقرانه بسمة المعاصرة وضرورة مواكبته للعولمة يقتضي طرح إشكالية مهمّة تكمن في تحديد مفهوم الخطاب1 ذاته ،الذي لا يقف عند حدود القول المنطوق به خاصة وأنّ مفهوم الخطاب في الدراسات المعاصرة قد تحوّل من البحث في طبيعة المعاني إلى البحث في الكيفيات التي بها يتمّ تشكيل المعاني ومن هنا كانت دراسة الخطاب هي المجال الذي يتمّ فيه الكشف عن هذه الكيفيات والوقوف على الدوافع الموجّهة لها والوظائف التي تحقّقها.

ومن ثمّ فإذا كان الغرض هو تجديد الخطاب الديني فيبدو أنّ الأمر يقتضي ضرورة التمييز بين هذا الأخير والخطاب القرآني، على أساس أنّ الأوّل هو خطاب يعتمد على مرجعية دينية في مخاطباته وأحكامه وبياناته، والمراد به ما يطرحه العلماء والدعاة في بيان الإسلام والشريعة من خلال الخطب أو المحاضرات أو المؤلّفات أو البرامج الإعلامية، فهو بمثابة الواسطة بين الناس والقرآن ومع ذلك فهو مجرّد اجتهادات بشرية لعلماء المسلمين لا تتجاوز حدود العمل العقلي البشري أو العمل الاجتهادي الذي يرتبط بإمكانات الإنسان وقدراته وطاقاته. في حين أن الثاني هو خطاب إلهي مقدّس منزّه عن التغيير أو التجديد.

فالظاهر إذا أنّ الخطاب الديني قابل للتغيير والتجديد دون المساس بالثوابت الشرعية2، وقد صحّ عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أنه قال"**إنّ الله يبعث لهذه الأمّة على رأس كل مائة سنة من**

يجدّد لها دينها"[3] فذكر النبي صلّى الله عليه وسلّم في هذا الحديث تجديد الدين نفسه،والخطاب الديني جزء من هذا الدين و تجديده، والذين يقومون بعمل هذا التجديد وردوا في الحديث بلفظ (**مَنْ**)، فهو عامّ يشمل الفرد والجماعة.

وهذا ما يحيلنا إلى طرح سؤال مهمّ:لماذا تجديد الخطاب الديني في هذا العصر؟

هناك ضرورات عديدة وملحّة تقتضي تجديد الخطاب الديني أبرزها أنّ هذا الخطاب بوضعه الراهن قد أخفق في تحقيق مهمّاته وأهدافه الأساسية[4] و أهمّها:

1- **الهدف التحصيني:** لقد عجز الخطاب الديني رغم كثرة الموارد المرصودة ، والهيمنة الطويلة على المناهج والمنابروكافة الأنشطة الثقافية عن تحصين الأمّة العربية الإسلامية وتقوية مناعتها في مواجهة أمراض التطرّف التي غزت نفوسهم وعقولم.

2- **الهدف التنموي:** الدين قوّة هائلة تشحن طاقات المسلم للبناء، والإنتاج، والتنمية،والتزوّد بالعلم والمعرفة، لذلك ينبغي أن يساهم الخطاب الديني في توظيف طاقات المسلم في مختلف ميادين السباق الحضاري.

3- **الهدف التوحيدي:**لم يستطع الخطاب الديني على مرّ العصور توحيد الأمّة،بل زاد انقسام المسلمين إلى طوائف وفرق تدّعي كل منها أنها تملك الحقيقة المطلقة دون الأخرى.

4- **الهدف الدعوي:** من أهمّ وظائف الخطاب الديني تقديم صورة حضارية للإسلام إلى العالم المعاصر ولكنّ الظاهر في عصرنا هذا أنه قدّم صورة منفّرة للمسلمين.

هذا و قد توصّلت معظم الدراسات المعاصرة إلى أنّ "مسؤولية الفشل لا تقع على عاتق النخبة الدينية وخطابها فقط بل هي مسؤولية مشتركة أيضا إلا أنّ مسؤولية النخبة الدينية هي الأعظم"5.

إنّ تجديد الخطاب الديني هو قضية حيوية لمجتمعاتنا وضرورة فطرية بشرية مقارنة مع ما يشهده العالم من تطوّرات هائلة في مجال المعلومات والاختراعات، وهو قراءة واعية واعدة للنفس والآخروالواقع على إيجاد الحلول الشرعية المناسبة لمشكلات المجتمع.

فلابدّ إذن من خطاب ديني معاصر و منضبط يستطيع أن يصنع النهضة و يساعد عليها ويدفعها لإخراج الأمّة من التيه الذي تتخبّط فيه.

أمّا عن دعاة هذا التجديد الذي يخصّ الخطاب الديني فينبغي أن يكون على أيدي متخصّصين إسلاميين مع ضرورة مراعاة القواعد الشرعية و الأحكام الدينية الثابتة.

و من أشهر هؤلاء الدعاة **العلامة الشيخ الدكتور يوسف القرضاوي**6، الذي أبدى رأيه بوضوح في قضية تجديد الخطاب الديني وقال بأنه لا ينبغي أن يمسّ الثوابت التي لا تتغيّر بتغيّر الزمان،والمكان، والإنسان من العقائد و العبادات وأصول الفضائل والرذائل...،لا يمسّ الجديد هذه الثوابت إلا من جهة أسلوب عرضها،أما غير الثوابت فهي التي يدخلها الاجتهاد والتجديد7.فرؤية

القرضاوي إذن تقوم على إمكانية تحديث الخطاب الديني من عصر إلى آخر بغير المساس بثوابته.

لقد اجتهد الدكتور يوسف القرضاوي في تبيين ما يجب أن يكون عليه الخطاب الإسلامي في هذا العصر المسمّى بعصر العولمة أي تقارب العالم، مؤكّدا على أنه لابدّ أن يكون خطابنا الديني مبنيّا على الوسطية في الفكر و ضرورة مناسبته للعصر الذي نعايشه.

ولتحقيق هذا المبتغى الرامي إلى خلق خطاب ديني معاصر،آثر الشيخ الدكتور تأليف كتاب يلمّ بخصائص وسمات هذا التجديد الذي يجب أن يشمل الخطاب الديني سمّاه " **خطابنا الإسلامي في عصر العولمة** "، وهو من روائع مؤلفات الشيخ يتحدّث فيه عن ضرورة تغيير الخطاب في زمن العولمة ويضع له شروطا و معالم ليتناسب وفقه المرحلة، كما حاول العلامة القرضاوي في هذا الكتاب أن يشرح الخصائص العامة8 التي يجب أن تميّز الخطاب الديني الجديد والمعاصر، والتي يمكننا تلخيصها والإشارة إليها فيما يلي:

1- هو خطاب ديني يؤمن بالله ولا يكفر بالإنسان.

2- إنّ هذا الخطاب يؤمن بالوحي ولا يغيّب العقل، فالإسلام يحترم العقل لأنّنا به نفهم خطاب الله ورسوله، وبه نعرف الكون والحياة.

3- هوخطاب يدعو إلى الروحانية ولا يهمل المادّية ذلك أنّ الإنسان كائن مزدوج،فالجانب الروحيّ يشمل الإيمان، والعبادة،

والتقوى، وفعل الخيرات، أمّا الجانب المادّي فيشمل عمارة الدنيا بالمباح ، والتمتّع بالحلال ، والاستمتاع بالطيبات.

4- هو خطاب يعنى بالعبادات الشعائرية ولا يغفل القيم الأخلاقية.

5- و هو خطاب يدعو إلى الاعتزاز بالعقيدة ، كما يدعو إلى التسامح والحبّ مع المخالفين ويدعوهم إلى الإسلام ويبذل وسعه في الدعوة إلى الإسلام.

6- هو خطاب يحرص على المعاصرة ويتمسّك بالأصالة ، فلا يتقوقع على الماضي وحده، و لا يعيش في الكتب القديمة وحدها ، ولكنّ الحياة تتطوّر فهو ابن زمانه، ومكانه، وبيئته، وهذا التجديد لا يعني التنكّر للقديم ، وهذه المرونة لا تعني التنكر للثوابت، ولكن هناك ثباتا للأهداف و تطوّرا للوسائل.

7- هو خطاب يتبنّى التيسير في الفتوى والتبشير في الدعوى، وهو يرجّح التيسير على التعسير في الفقه، لأنّ الشريعة مبناها على اليسر، و لأنّ الناس في عصرنا أحوج ما يكونوا إلى اليسر، **لقوله تعالى:" يُرِيدُاللهُ بِكُمْ اليُسْرَ ولا يُرِيدُ بِكُمْ العُسْرَ".9**

8- هو خطاب ينادي بالاجتهاد في فهم الشريعة بوصفه طريقا شرعه الإسلام لاستنباط الأحكام من النصوص ولا يقبل الخطاب المعاصر مقولة **"سُدَّ بابَ الاجتهادِ "** التي شاعت في بعض الأزمان.

9- ينكر الإرهاب الممنوع ويؤيد الجهاد المشروع الذي فرضه الإسلام، ويبيّن مدى حرص الإسلام على مسالمة من يسالمه حرصه على معاداة من يعاديه فالإرهاب المرفوض هو الذي يروّع الآمنين ويأخذ البرآء بذنب غيرهم،وفي مثل هذا ورد حديث نبوي قال فيه **الرسول صلّى الله عليه و سلّم:" لا يحلّ لمسلم أن يروّع مسلما ".10**

10- ذكر القرضاوي أيضا من سمات الخطاب الديني المعاصر أنّه ينصف المرأة ولا يجور على الرجل.

11- ومن خصائص الخطاب الديني في عصر العولمة أنّه يحرص كلّ الحرص على الأقلّيات الدينية في الوطن العربي الإسلامي ويحفظ لها كيانها الخاصّ، ولا يفرض عليها شيئا من عباداته أو فرائضه رعاية لمشاعرهم و أحاسيسهم مستدلا على ذلك بأنهم من أهل الكتاب11 الذين ميّزهم الإسلام بوضع خاصّ.

نستطيع بعد عرض هذه المعالم التي تبنّاها الشيخ القرضاوي وغيره من العلماء نحو خطاب ديني جديد و معاصر، وضع استراتيجية محكمة تقودنا إلى تحقيق هذا التجديد المواكب للعصرنة والعولمة، محقّقة نتائج تعود بالإيجاب على الفرد والمجتمع ترتكز على القواعد والاقتراحات التالية:

1- بيان ماهية الخطاب الديني ، خصائصه، و أهمّيته.

2- تحديد المنطلقات، والخلفيات الدينية،والفكرية، والسياسية، والاقتصادية، والاجتماعية لهذا الخطاب.

3- ينبغي أن يتضمّن الخطاب الديني المعاصر برامج ومشاريع للبناء والتنمية تلبي طموحات الجماهير في غد أفضل.

4- تقديم حلول ومعالجات للمشاكل والتحدّيات التي يواجهها العالم في ظلّ العولمة.

5- تحديث الخطاب الديني يتطلّب التحدّث بلغة العصر ومخاطبة كلّ مجتمع بما يفهمه وبما يحتاج إليه لنشر تعاليم الإسلام في كلّ ربوع العالم، لأنّه دين عالميّ صالح لكلّ زمان و مكان.

هوامش و إحالات

1 – إنّ لفظة الخطاب كلمة عربية فصيحة ،استخدمها الأصوليّون كثيرا،والخطاب هوالمحاورةوالمحادثة

ين طرفين أو أكثر.

2- المراد بالثوابت الشرعية ما ورد من أحكام شرعية في القرآن الكريم و السنة النبوية.

3- أخرجه أبوداود، والحاكم وصحّحه، سنن أبي داود،حديث رقم4291 ،4/ .109

4- ينظر على صفحات الأنترنت، مقال بعنوان" نحو خطاب ديني معاصر "، الشيخ عزيز عبد الواحد.

5- ينظر الموقع الإلكتروني: www.tawasol.se/makalat

6- هو العلامة: يوسف عبد الله القرضاوي المولود في 09 سبتمبر1926 ، بقرية صفط تراب، مركز المحلّة الكبرى، بمحافظة الغربية في مصر،و هو أحد أبرز علماء السنة في العصر الحديث، رئيس الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين ، مدير مركز بحوث السنة و السيرة النبوية بجامعة قطر.للشيخ القرضاوي ما يزيد عن 170 من المؤلّفات المختلفة بين الكتب والرسائل والمذكرات والفتاوى.

7- ينظر الرأي المفصّل للقرضاوي في تجديد الخطاب الديني في كتابه" خطابنا الإسلامي في عصر العولمة".

8- ينظر:" خطابنا الإسلامي في عصر العولمة "، د. يوسف القرضاوي،دار الشروق، القاهرة ،ط1،1424هـ/ 2004م،ص56-.184

9- القرآن الكريم، رواية حفص عن عاصم، دار القرآن الكريم، دمشق، ط1، 1428هـ/ 2007م، سورة البقرة ، الآية 185،ص.28

10- رواه أبو داود، رقم الحديث .5004

11- أجاز الله تعالى في القرآن الكريم أكل طعام أهل الكتاب وذبائحهم امتثالا لقوله تعالى في سورة المائدة، الآية 5،"وطَعَامُ الذينَ أُوتُوا الكِتَابَ حِلٌّ لكمْ وطَعَامكُمْ حِلٌّ لَهُمْ و المُحصناتُ مِنَ المؤمنات

و المُحْصَناتُ منَ الذين أُوتُوا الكِتابَ مِنْ قَبلكُمْ".